آراء وأنباء

كلمة الدكتور سامي الدهان (١)

سيدي معالي رئيس المجمع

حضرات السادة الأعضاء

منذ زمن بعيد ، توافد على الشرق الأوسط كثير من مسلمي البلاد العثمانية في الغرب ، فوجدوا في أفيائه الظل الظليل والمنزل الرحب ، وبلغ بعضهم مرتبة الإمارة والوزارة ، ورقي بعضٌ الى العروش .

وفي منتصف القرن التاسع عشر للميلاد قدم في الوافدين رجل ألباني الأصل ألقى مراسيه في شاطئ بيروت ، وراح يعمل فيها ، حتى اذا استقر به الحال سلك في اللبنانيين ودخل في حياتهم وبنى على واحدة من بيوتهم من أسرة الخوري ، وكان من هذا الزواج «احمد» وقد عُرف بالأرناؤط دلالة على الوطن وإشارة الى الأصل .

وكان «أحمد الأرناؤط» يعمل بين البر والبحر فيعاشر أمواج البحر وأنواع السفر ، ويقبس من هذه قوةً ومن هذه اطلاعاً . فلما استراح الى حيّه من بيروت خطب منه وتزوج فيه ورزقه الله بنين وبنات ، وفيهم «معروف» وُلد سنة ١٨٩٢ والقرن التاسع عشر يشارف الاحتضار .

وفي هذه الآونة كانت بيروت تموج بالطلاب وتضطرب باللغات وتهتز بالمنابر ، ففيها مدارس وكليات ، ومعاهد وجامعات ، تختلف اليها الطوائف والمذاهب على ألوانها ومشاربها ، تتنافس في العلم وتتسابق الى الثقافة ووقع في روع الناس أن هذه المدينة تعيد تاريخها القديم حين كانت تحمل الى البحر المتوسط كله شعلة الحقوق ودراسة القانون .

---

(١) القاها في الجلسة التي عقدت لاستقباله في ٤ شباط سنة ١٩٥٤ بعد انتخابه عضواً في المجمع العلمي العربي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في هذه الزحمة من نشاط المدارس دخل (معروف) الكلية العثمانية الاسلامية للشيخ أحمد عباس الأزهري أبي الفتيان الأحرار ، وهذه الكلية كانت كمثيلاتها قوةً في العربية ووقوفاً على الفرنسية وتمرساً بالخطابة وعكوفاً على القريض والكتابة . وكان الشعر واسطة السباق في الحلبة وشارة النبوغ في الشباب ، يدوّي في بيروت فتحفظه الصدور وتعيه القلوب .

ولم يتخلف معروف الفتى عن هذا الركب ، فقد وهبه الله لساناً لافظاً وقلباً حافظاً ، فشارك في القول وخاض في المعركة ، وكانت بيروت تسمع لشكيب أرسلان وخليل مطران واليازجي والبستاني ، تنشي بقصائدهم وخطبهم في العرب والعربية ، وتشغل ليلها ونهارها بهذا الجدل المتصل حول الاشتقاق واللغة ، والعامي والفصيح ، وتعوج على المعاجم وقد غمرت السوق ، طوراً تصدر عن اليسوعية ، وطوراً تطبع في الأمريكية ، وأحياناً تنبثق من الحكمة والكلية العثمانية .

في هذا الجو المضطرم بالخطابة والكتابة والشعر نشأ معروف ، فداعب ربة الشعر حيناً من الزمن ، وتعلّق بالترجمة ، وردّد ذلك على صحبه واخوانه .

ولما احتفلت بيروت لتكريم الشاعر معروف الرصافي ، ووقف الجهابذة ينشدون ويتفننون ، صعد في أقصى السلم فتى في السادسة عشرة من عمره ينشد قصيدة في الحفل ، فتلفت اليها القوم ، ونظروا الى الفتى نظرة الأسر الى وليده ، يكتسي بالريش ويتقوى بالريح ويحدّق الى السماء ليخفق بجناحيه بين النسور .

وقرأ الناس ببيروت في صحف : « البلاغ ، والرأي العام ، والاقبال » ترجمات عن الفرنسية في المسرحية والقصة ومقالات في الأدب وقصائد ، فتساءلوا عن هذا الفتى يجمع بين جنبيه طموحاً الى عربية محلقة لا تنزل عن خيال الابتداعيين الفنائيين ، ففيها جرح وأسى ويأس ، حتى لقد ظنّ كثيرون أن الفتى طُبع على الألم وصرف الى الهم فيما يترجم عن الغربيين ، وخيل اليهم أنه فطر على العروبة فيما يتخيل ويكتب ، أو أنه يحلم بامبراطورية فسيحة في مملكة القلم ، جناحاها الأدب الغربي وقلبها رسالة العروبة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ورأى الناس كذلك كتباً صغيرة مترجمة بقلم معروف الأرناؤط لطائفة من الكتاب الفرنسيين أمثال : (فرانسوا كوپيه ، وتيوفيل غوتيه ، واسكندر دوماس ، والفريد ده موسه ، وجان دارسي ، وميشال زيفاكو) ، تحمل عنوانات مغربة : (حرب المئة ، الستار الأسود ، الصيقلي الشريف ، الطفلان الشريدان ، ديانا ، عذاب الضمير ، تقريع ضمير الملوك ، لادام أو كاميليا ، الابنة الملعونة ، أسرار رومية ، عواطف الإخاء ، روجه لاهونت ، لادام دي مونرو) . ورأوا كذلك كتباً صغيرة أخرى لا يتجاوز الواحد منها في الغالب أكثر من ثلاثين صفحة هي : (عمرو بن العاص ، الحرب في طرابلس ، أدرنة في النار ، الجاسوس الياباني ، الجريمة السورية ، الأخرس القاتل ، ابنة البحري ، نيويورك الخفية ، تاريخ الأدب في الجيل التاسع عشر ، القاهرة ، وهي أكثرها روايات وأقاصيص مترجمة لا تحمل اسم المؤلف الأجنبي ، ولا تثير في الأدب إلا فكرة التسلية والمطالعة والمحاولة ، نُشر بعضها في دمشق وبعضها في بيروت . وكانت هذه الكتب سبيلاً الى تمرُّس الشاب باللغتين ، وحبه للترجمة وعكوفه عليها ، والاستفادة من خيالها وأساليبها .

وتلفت الشاب الى المسرحية ، فعمل فيها وشارك في التمثيل فسافر له . وفي بعض أسفاره ، صحب سيدة فرنسية الى المعرة ، فلما وقف على قبر أبي العلاء آنذاك استصغر العناية بالقبر ، وهزَّه الشمم الى الفخر ، فقد أخذت المرأة على العرب إهمالهم لسيد الحكمة الشعرية في القرن الخامس ، لذلك أنشأ رسالة سماها (فردوس المعرّي) سنة ١٩١٥ ، طار فيها على أجنحة الخيال ، فطاف بالأولمب ووصف آلهة الشعر في اليونان ، ثم حطّ رحاله بالبانثيون في باريس ، ونقل لنا قصائد للشعراء الفرنسيين ، وسأل عن موقع المعري بينهم وذرف الدمع أسى حين وازن بين إكبار الغرب لشعرائه وإهمال الشرق لأدبائه .

ولما وقعت الحرب الكبرى وسيق العرب الى المعركة ، حُمل الشاب بين المجندين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

برتبة معاون ضابط ، ونقل الى استانبول ، وفيها عاش عيشة الأدباء ، فكتب بعد عشرين سنة يسترجع الذكرى بأسلوب شاعري يقول فيه :

«في صيف سنة ١٩١٦ ، ألقت بي حظوظي الى مغاني استانبول ، وأرادني قدري جندياً من جنود الحرب الكبرى التي روعت العالم قاصيه ودانيه ، فارتضيت ما لا يرتضيه العمر الطريّ الجنيّ ، وفزعتُ الى منزل صغير في ضاحية (فناريولى) على الشاطئ الوارف في بحر مرمرة الهادئ ، وصحبت معي الى المثوى الذي اشتمل عليّ كتاب الله وسيرة نبيه ، وقد حملتهما أمي إليّ ساعة سفري ، وأوصتني بالرجوع اليهما في محني وكوارثي ، وأملتْ أن أفيء اليهما بعد اغتراب ، ودعت لي وللذين يحاربون ويناضلون » .

سادتي ،

أطلت القول في مسارح الطفولة والشباب ، وألححتُ عن رضاً في ذلك لأكشف عن أثر هذه المواطن فيما خلّف معروف الأرناؤط من آثار أدبية . فقد كان رحيله الى استانبول ، وطوافه في مغاني عاصمة البزنطيين ، واستسلامه للغربة ، وشعوره بعاطفة الدين هي التي أفنعته بعظمة الفتوح ، وردّته الى شيء من الإيمان حيناً من زمن فاستيقظت فيه فكرة الرواية وتحرك عنده خيال الفخر والاعتزاز .

فالشاب إذاً مدينٌ لينابيع ثلاثة في أدبه هي : المدرسة ، والوالدان ، والرّحلة .

أما مدرسته فقد تلقن فيها وتعلّم ، فأهدى أول كتبه اليها معترفاً بجميلها قائلاً : «الى تلك الأمّ التي أرضعتني من ثديها لبان العلوم ، الى الأم الجامعة بين الاخاء والمساواة والحرية ، الى المدرسة العثمانية مهد المجد والعلم» .

وأما والداه فقد كتب فيهما يقول : «فاني لأحب أن تفلت خواطري فتجفوَ أودية دمشق وتطيرَ الى ذلك البحر الأزرق الجاثم على قدميْ بيروت ، وتفتش في نواحي المدينة التي خلفتُ فيها طفولتي ومراكض شبابي عن قبور هؤلاء الذين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أحبتهم ، وفي هؤلاء أمي وأبي » . وقال يذكر يد أمه عليه : « يوم كانت أمي تجلس إليّ في ليالي الشتاء لتقصّ عليّ أروع ما عرفته عن حياة سيد قريش وصحبه » . وحنّ الى أبيه في استانبول فقال : « وأروح ناظراً الى صورة لأبي معلقةٍ على الجدار فيؤنسني أن بهذه الصورة عينين شاخصتين إليّ ، وأن فيهما رقةً وعذوبةً ورحمةً ورضا ، كأنهما كانتا ترسلان إليّ في طريق حياتي ذلك النور الأقدس الذي يضيء قلب المغترب النازح ، فيرى العالم السابح في ليل مآسيه ، كأنما هو قد اكتظ بالضحك ، ونفض عنه أشباح قتلاه .

وأما رحلته فقد بدأت منذ طوّفت عيناه في السماء والماء ، والصخرة والخضرة ، والزهر والنور ، والسحر والعطر ، وحين تفتح قلبه للشباب وركضت أحلامه في الصبا ، سواء في بيروت واستانبول أم في العراق ومصر وبوادي الشام . وقد كان خياله يطفح بهذه الصور جميعاً فتسيل على قلمه ، وتكتسي بالظلال والألوان ، وتتضمّخ بالطيب والعطر ، فترى فيها الى الزوارق والقوارب تختلج أمام عينيه في بيروت ، وتسمع الأنغام التي كانت تنصبّ في أذنيه وهو في بيته الربفي باستانبول ، حيث يقول : « إن هذه الليلة الساجية قد ابتعثتني على كتابة أول أشعاري في الاسلام ، ففي استانبول على الشواطئ الهادرة ، ـ التي لم تشقها سفن أمير المؤمنين معاوية ، ولم تبلغها سفن مَسلمة بن عبد الملك في خلافة أمير المؤمنين الوليد ، فجازتها جيوش محمد الفاتح ـ ارتجّ الاسلام في قلبي ووأد أنشودة اسمها (سيد قريش) وانها لحادثة رائعة أتمها الله على يديّ ، في زمنٍ مسحَ فيه انتصار القويّ الحدود الجغرافية ، واستعبد الأمم الصغيرة ، وطوى حرياتها ، وفصل بين غابرها وحاضرها » .

وهكذا يعترف الرجل بأثر الرحلة في نفسه ، وقد رأى فيها مشاهد غريبة ومناظر جميلة ، وألواناً مختلفة من ألم وأمل وسعادة ويأس ، فغطّ ريشته فيها وكانت هذه الآثار التي خلّفها شاهداً على رقة حسه وجميل شعوره ودقيق خياله .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأروع ما في الرحلة مُقامه في استانبول وبقاؤه على قُرْبٍ من الحرب يسمع أنباءها ويحسّ أخطارها في عاصمة الخلافة ومركز القيادة ، وقد رأى الغرب فاغراً فاه لابتلاع الشرق وتحطيم كيانه وإذلال جيوشه وقواده ، بعد الفتح الكبير والسلطان الواسع ، ونظر الى العثمانيين من زاوية الدين والرابطة المذهبية وظنّ فيهم حماة المجد السالف وتتمة التاريخ العربيّ ، فآلمه انكسارهم وهمّه تقلص الدولة العثمانية ، فقال يصف أثر ذلك في نفسه : « ولقد خرجتُ ـ من الحرب ـ وأنا أحمل في قلبي كثيراً من الهمّ وكثيراً من الشعر ، فأما الهمّ الذي حملته فلقد سرب الى نفسي من انكسار هذه الأُمة التي أحبها ومن اخفاقها في جني ثمار كدحها وجدها » .

ولعل نفس الأرناؤط تأثرت خلال الحرب بالدين ، فلاح له التقى عن سبيل الخوف ، وانصرف عنه الورع حين انقشعت سحب الحرب ، فهو يقول واصفاً تلك الحِقبة التي قضاها في قربته قرب استانبول : « من ذلك اليوم الذي لا ينسى ذكراه أبناء هذا الجيل المروّع ما جفوتُ محراب القرية خلال صباح وخلال مساء » .

وقد حاول الكاتب من غير شك أن يضع مذكرات لحياته يصف فيها هذه الرحلة والمشاهد فاذا به يصبها في رواياته ويختفي خلف الشخصيات التي يبدعها قلمه ، ولو أُتيح له أن يفعل لنافس روسو في اعترافاته . وقد استفاد من الرحلة والأسفار ثقافةً واطلاعاً ، فمالت نفسه الى التواضع ، وجنح قلبه الى البساطة ، ونظر الى الدنيا من خير وجوهها ، وفهمها من أبسط مسالكها ، وضحك لها واستخف بها كما فعل الشعراء العباسيون في عهد الرشيد ، أو كما يفعل شعراء الفرنسيين المتحررين بباريس ، فعشق اللهو ، وأحبّ الحياة ، وألف الدّعابة ، وكان أصدقاؤه يحاربون به الغمّ في المقهى ، ويطردون به الحزن في الملهى ، وكانت مجالسهم معه تفيض بالسرور والنكتة ، حتى لكأنه أشعةٌ تبدّد ظلمات النفس ، وريحٌ تعصف بالكدر . والذين يعرفونه يروون له النكت الغريبة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد وقعت له في صفوف العامة أو قصور الملوك أو بيوت الوزراء أو دوائر الحكومة والصحافة ، في مختلف العواصم العربية ، فقد عُرف الرجل بالضحك الساخر ، والاستخفاف النادر ، والكلم السافر ، وعاش أبداً في شباب العمر ، يضحك قلبه ويبهج لسانه ، لا يعرف من فصول الحياة إلا الربيع ، ومفاتن الربيع !

سادتي ،

لعلكم معي في أن المدرسة والبيت والرحلة تعاونت في أدب معروف الأرناؤط وبدت واضحة في كتبه ، فقد نشأ في عُباب الدعوة للعروبة في بيروت ، وعاش في ريف العاصمة العثمانية على مشاهد فاتنة مبدعة تضطرب بين الحرب والحب والجمال والايمان ، فعاد القهقرى بذكرياته الى هؤلاء الأجداد الذين أخضعوا الشرق وبلغوا البحر الأسود وملك كسرى .

وانكسر العثمانيون فاحتضنت دمشق ملكاً عربياً ، ونصرت عاهلاً قرشياً ، وطمحت الى مكانها القديم من مجد الخلافة حين كانت ترسل الإشعاع والأمان الى ربوع نائية بعيدة . فاجتمعت كلمة الدعاة الى العروبة في دمشق ، وتقاطر اليها مَنْ يسير وراء الصولجان ويمشي خلف السلطان ، وفيهم هذا الشاب معروف الأرناؤط ؛ فقد أعلن بلسانه ذات يوم أن البيت الهاشمي امتداد لقريش ، وأن ربوع دمشق ظلّ للغساسنة والأمويين ، فآثر أن يعيش في ظل الأمجاد كما يقول ، وأن يريق قلمه في مفاخر الأجداد كما يردّد ، فسكب روحه في حبّ دمشق ، وسالت نفسه شعراً حين تحدّث عنها قائلاً :

«أي دمشق ، لقد قرأتُ تاريخكِ الماضي ، وأصغيتُ وأنا أتحدثُ الى حُماته ورُعاته إلى خفق ألويتك واهتزاز راياتك ؛ ثم رأيتك تجتازين البحارَ والخلجان والمدن الكبيرة عظيمة كالشمس قوية كالخلود ، ثم رأيتك تتخلين عن البحار والخلجان والمدن لتعيشي في جناتك فما استهواني من هذه الصور المتنافرة غير آلامك وغير جراحاتك ، فأنتِ على ما بك من الألم أشدّ فتوناً من كلّ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مدن العالم وذلك لأن روحك لم تهرم ، فهي لا تزال فتية كأنها ولدت ليلة أمس » .

لذلك طلّق الأرناؤط بيروت الى غير رجعة ، وسكن دمشق أبد الدهر فقطن في قلب المدينة بسوق الحميدية ، وراح يعمل في الصحافة ، فأنشأ مع عثمان قاسم ورشدي مَلحَس جريدة الاستقلال العربي سنة ١٩١٨ ، فعاشت شهوراً ولقيت حتفها ، ثم أنشأ مجلة العلم العربيّ للأدب والشعر عام ١٩١٩ ، وانصرف بعدها الى جريدة جديدة بدأ بها في سنة ١٩٢٠ ، وظل يعمل لها طول حياته .

وفي مكتب الجريدة المتواضع ، أو خضم المقهى بين النرد والدخان كان الكاتب يقضي نهاره ولياليه ليظهرها على الناس في أسلوب عربيّ تحمل في غرتها الشعر الرائع والمقالة الضخمة لأدباء العراق أو كتاب مصر والشام أو شعراء الغوطة والنيل ، فتقع فيها على أسماء الأعلام المعاصرين ؛ وفيهم : العقاد والمازني وهيكل ودياب ، وشوقي ومطران والعجلاني وشكيب أرسلان وشفيق جبري ، ذلك لأن صاحبها يرى الرأي للأدب قبل السياسة والاجتماع ، فكانت وحدها بين الصحف تحمل طابع المجلة الأدبية والجريدة السياسية جميعاً .

وكانت هذه الصحيفة خلال ثلاثين عاماً موضع همه ومسرح قلمه ينصرف إليها ويصرفها ، ثم ينصرف عنها لتحبير كتبه وانشاء قصصه التاريخية . وكان الى اهتمامه بقلمه يلتفت الى أولاده الثلاثة فهم خليفته في الأرض وامتداده في الدنيا ، وفيما عدا ذلك كان يقضي ساعاته مع الكتب العربية والغربية لا تفارقه ولا يفارقها يقرأ ويقرأ ثم يكتب وينشئ في كل مكان ولكل مجلس حتى أخرج ملحمته الكبرى ـ كما كان يحب أن يسميها ـ وهي تتكون من أربعة كتب : سيد قريش ، عمر بن الخطاب ، طارق بن زياد ، فاطمة البتول . وقد أظهر بين يديها مسرحية عن الأندلس عنوانها (ابو عبد الله الصغير) جعلها للتمثيل المدرسي ، وطبعتها المدرسة الفاروقية بحلب سنة ١٩٢٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهذه الكتب الأربعة تمثل جهد الكاتب الفنائي والقاص الابتداعيّ ، وهي التي أفردته بين الكتاب لزمانه وجعلت له أسلوباً خاصاً ومكاناً حسناً في خيالها وأسلوبها وفي موقعها من الأدب والقصة التاريخية .

وهذه الكتب من طراز متفق تحوم كلها حول التاريخ العربيّ خلال عصوره الزاهية الأولى ، صوّرها الرجل في قالب القصة ، فرسم فيها المدن والجبال والأودية على تقلب العصور وفي مختلف الألوان والأخيلة الأدبية ، يريد أن يقرّب البعيد وأن يلوّن القريب ، لعل القارئ يلمس العرب على أربعة عشر قرناً بيديه ويسمعُ حديثهم الرفيع أو كلامهم العاديّ .

ويمتطي « معروف » الى هذا كله قراءاته المتعددة من كتب المستشرقين ومصادر العرب الأقدمين ، يريد أن يوطئ أكنافها ويذلل اختلافها ، فيسهل ويلين حتى يجتنب القارئ أغوار الفكرة وأعماق الفلسفة ، فهو يؤثر الراحة والبساطة وقرب الآفاق ، فيوفق حيناً في القصة ، ويُخفق حيناً .

وهو يدور في كتبه هذه على إكبار العربيّ ، والتغني بحضارته ومدنيته وحرّيته ، فيرى في قصوره نعمى الحياة ترقص نشوى ، وأغاني المجد تهتز سكرى ، لا تنقصه الا صرخة الوحدة ، واجتماع القريب الى القريب ، فلما جاء سيد قريش حقق الأماني وعزّز الرابطة فانتفضت امبراطورية عريضة ، وكُتبت أمجاد خالدة على صفحة الشام وجنبات العراق ومصر وافريقية ، جعلها المؤلف مراتع أبطاله ومواطن رواياته ، فعطّر هذه المرابع وكسا التاريخ بثياب القصة .

وقد طوى (الأرناؤط) في سبيل ذلك عشر سنين كانت تآليفه فيها على تفاعل متصل وولادة متتابعة . فقد أظهر سيد قريش سنة ١٩٢٩ ، وهي في ثلاثة أجزاء عرّج فيها على الشام قبل الميلاد فرسم عيشها ونحت قصورها ، وصوّر العشق فيها والغزل ، ونقل الينا ما وقع بين العرب من حديث وما جرى لهم من معارك ، وعُني بالشعراء الذين توافدوا على الغساسنة أو الذين اجتازوا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بالشام الى قيصر ، فكتب في حسان بن ثابت وزيارته مع أبي سفيان وأمية ابن أبي الصلت ، ثم قصّ علينا حكاية امرئ القيس ورحلته الى القسطنطينية وسفر ابنته اليهـا في سبيل الإرث والانتقام . فوصف الطرقات والقصور ، وسرد قصص الهوى والغزل ، وأحصى دقات القلوب ونلفت الأجياد وهمس العيون ، واتخذ سبيله الى التاريخ الأدبي حيناً ينقل عنه ، وحيناً الى الاختراع القصصي يستوحي منه ، وكتب خلال هذه الأجزاء الثلاثة سيرة النبي الكريم وما كان من علائم بعثه ورسالته ، وما نُقل في التاريخ من أحاديث الرهبان .

وفي الكتاب صور نقلها الأرناؤط ، عن مشاهداته كما رآها بنفسه فرسم القسطنطينية وكنائسها القديمة ورسم حوران ودمشق ، وفيه كذلك عرض لمصادر التاريخ والأدب نقل منها جميعاً ، ووازن بينها جميعاً ، فتراه حيناً يترجم عن دوسو ونولدكه وبرسقال وهوار وسديو ، وحيناً ينقل عن أبي الفداء وابن الاثير والطبري وكتب السيرة والأغاني والعقد الفريد وكتب الطبقات .

ثم أصدر كتابه «عمر بن الخطاب» سنة ١٩٣٦ في جزءين اثنين ، أولها ليالي شاعر ، والثاني فرسان سيد قريش وأعلن عن الثالث والرابع ولكنهما لم يصدرا . وقد زار الرجل العراق وتعرّف الى الأماكن التي كانت ميداناً للصراع في سبيل الحرية بين الفرس وعرب العراق بعد أن زار سهول الأردن وجبال فلسطين ، وتوغّل في صحارى سيناء وأشرف على طلول النَّبَط في مفاوز سَلْع لكتابة الجزءين الأولين . وخرج من ذلك بوصف تدمر وبُصرى ومدن شرقي الأردن وفلسطين . ورغم حب شاعر لفتاته ، وطفولة ابن الخطاب وموقعة مؤتة ، واستعان بأساليب اليونان والفرنسيين في الحديث عن الحب وفي قصائد الغزل ، فبلغ الأجواء العالية في الأدب .

وفي سنة ١٩٤١ أصدر كتابه « طارق بن زياد » وصوّر فيه افريقيـة والأندلس والعرب والبربر والحب والجمال ، وأراق من هذه الخمور على أفواه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأبطال ما يسكر ، وجعل من هذه الملحمة الأموية لوحة خالدة لجهاد العرب في سبيل العقيدة والايمان والإخاء والاتحاد ، وانتقم من الكتاب الأجانب فأصلح ما أفسدوا من حبّ بين مغيث الأموي وفلوريندا الاسبانية .

وفي سنة ١٩٤٢ أظهر كتابه « فاطمة البتول » تحدّث فيه عن يزيد بن معاوية وموقف الحجاز من البيعة ، ونضال العراق في جانب الحسين السبط ابن فاطمة البتول ، وقد خلّف لنا لوحات بارعة عن الأسرة والأم والولد ، تصف لنا الحنين والحب والجزع والوداع الى لوحاته في القتال بين جيش الحسين وجيش شمر بن ذي الجوشن ، وما كان من ضحايا في العرب وبشاعة في القتل ، ووحشية في التنكيل .

سادتي ،

هذه هي بعض الموضوعات التي طرقها في كتبه قد نقع على مثلها في كتب غربية وشرقية تسدّد الهدف وتبلغ الغاية وتُرضي التاريخ ، ولكنها لن تبلغ من نفوسنا ما تبلغ كتب الأرناؤط ، ذلك لأن الرجل يمتاز بأسلوبه الفذ ، فهو يكتب على الورق كما ينسكب الربيع على الطبيعة فيورق ويزهر ويعطر ويسخر ، ويضحك ويبتسم ويغني وينشد ، ونشرق من خلال ذلك ألوان زاهية وأنوار مشرقة ، فتقع على حلو اللفظ وضاحك المعنى وعاطر الصورة ومجنّح الخيال ، تتسابق الألفاظ المدوية ، والعبارات الضخمة ، والكلمات المختارة ، بين السطور ، كما تستبق الفتيات الى عرس فتزغرد وتصفق وترقص وتنشي وتسكر ، ثم تختلف هذه الموسيقا التي تبدو للسامع عنيفةً حيناً هادئةً حيناً آخر كالطبيعة نفسها ، أو كالموصوفات عينها ، يصف المعركة فتسمع القعقعة والدويّ ، ويرسم الليل الساجي فترى الأشباح تسبح في الظلام ، ويصوّر المحبين فتحسّ الثغور والصدور والقدود تلتقي وتنفصل ، كأن عصا سحرية قد حركت المشهد وقادت المنظر ، فاتصل سحر السماء بالحديث ، وانتقل عطر الزهر الى المرأة ، وحملت الملائكة الى المحبوب فضائل الرجال وخصال الأبطال .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كلّ ذلك في كلمات جُمعتْ للكاتب وجُعلتْ طوع يديه ، يصفها ويرصفها لتحُلّ في المحل المناسب ، وتقع في الموقع الرضيّ ، فلا تكاد تنبو لفظة إلاّ في القليل ؛ فكأنه يقول الشعر من غير قوافٍ ، أو كأنه يرصف الدرّ في السطور من غير أن تحسّ له تصنعاً كثيراً أو تكلفاً ممجوجاً . والغريب أنك لا ترى عليه آثار التعب والارهاق فهو يكتب الصفحات كما يكتب السطور ، يسيل قلمه بالكتب هداراً كالشلال يُرغي ويزبد عند مسقطه ، فاذا سار صفا وسكن ، وتقلبت على وجهه صور السماء وظلال الأحياء ، ولذلك كتب فنال في الأدباء مرتبة الكاتب المحلّق والأديب المسترسل ، وقد امتدحه لذلك شاعر القطرين خليل مطران ، وقال فيه العالم الأديب الدكتور منير العجلاني يصف « روعة إنشائه المشحون بالعطر والصدى واللون » ، وكتب فيه صفيّه الأستاذ الكبير شفيق جبري عميد الأدب في الشام يرسم ذكرى ثلاثين عاماً معه يقول فيها : « كان يحبُّ في فنه الألفاظ الحلوة المرحة الضاحكة ، ويحرص على هذا الشكل من اللغة ، وما أعرف كاتباً اجتمع له من حلاوة الألفاظ وسرح اللغة وبشاشتها ما اجتمع لمعروف الأرناؤط » .

وهل تريدون مني شهادة بالأسلوب ورأياً في الطريقة وبياناً لهذه العبقرية بعد بيان العميد وشهادة الشاعر والعالم الأديب !! ..

سادتي ،

عرضتُ طويلاً لهذه الكتب وحللتها في خطوط كبيرة لأبرهن أن الرجل كان أبداً في تطور مستمر وتقدّم دائم في انتاجه ، وقد اكتفيتم من هذا الروض الجميل ببرعم واحد هو « سيد قريش » فمنحتم صاحبه لأجله سنة ١٩٣٠ مكاناً بينكم في المجمع ، وكسوتموه بذلك جناحي لقب كان يطير به في آفاق العربية مزهواً معتزاً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولقد رأيتم أنكم كسبتم جنديًا في صفوفكم ، ناضل في العربية الفصحى حتى وقع في الجزالة ، وعمل للتاريخ القومي حتى أدّى الرسالة ، وظلّ يحلّق ويحلّق حتى كان في الخالدين ، فسلك سبيل الكتاب العالميين وعرف ذلك لنفسه فقال أثناء خطبة له في بغداد يشرح فنه وأدبه :

« وإنما أنا كاتب قصة يصانع ذوق عصره كما يقول بعض الناس ؛ ورائد أموات كما يقول بعض ؛ أدخل الى المقابر وأشقّ الحجر الصالد ، وأزيح التراب الغامر ، وأبحثُ عن أولئك الذين طواهم ليلُ الموت في غسقه حتى اذا أطللتُ على الرُّفات الطحين ، رأيتُ بعينيَّ المضيئتين المتحركتين الى عينيه السادرتين ، وفتشتُ في صورته عن الطيف الذي أحبه فتسرقتُ صوته ، وسكرتُ من لحونه ، أو تقصصتُ أثره ، واستوقفته وتحدثتُ اليه بلغة يعافها الأحياء من الناس ، وتنبو عنها أذواقهم ولاتسيغها أفهامهم ، ذلك الطيف الهالك هو الماضي ، ولستم بناكريه ، فانه الجسر الذي جازته قوافل أبنائنا في ذات نهار ، فلعلنا لا نعجز عن اجتيازه ، ونحن نشق الطريق الى ذلك الغامض المظلم ، الذي يسمونه المستقبل .

هذا هو فني وذلكم أدبي ، ومن عناصره : الحزن والألم ، والمجد والشهرة ، والحب والحرب ، والشعر والزهر ، والنغم الماتع » .

وهذا تحليل طيب لما وصل اليه الكاتب في فنه ، فقد بلغ منزلة في القصة التاريخية تعلّق بها قبله جرجي زيدان في رواياته التاريخية ، وحلّق فيها بعده الدكتور طه حسين في كتابه على هامش السيرة . ولو أُتيح للرجل تفرُّغ لزادنا روعةً وجمالاً ، بل لو أُتيحت له حياة مديدة لزادنا كتباً وآثاراً كانت في جعبته وراء خياله ، فقد قال في صدر كتابه عمر بن الخطاب : « لئن بقي في الأمل طول ، وفي الأجل فسحة ، فسأكتب كثيراً ، وأصوّر كثيراً ، وأغني كثيراً » ، وقال بعدها : « واني لأرجو الله أن يمدّ في أيامي ، فلعلني

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أقول هذا الشيء الكثير على فمي ، ولعلني بعد هذا كله أفيء الى ظل هذه الأرض الحادبة ، فأستريحَ اليها بجوار أمي في حفرة تندّيها السحب ، وترققها هذه الأزهار التي جمعتها في أسفاري من سيناء ومكة ومن بوادي الشام والعراق ؛ ورحم الله أمي ، فلقد حسرتْ عن بصري ، وأرتني دنيا محمد رسول الله ودنيا صحبه ، ووهبتْ لي مجد هذا اليوم الذي أنا فيه » .

ولكنّ هذا العمر كان قصيراً ، وهذا الأجل كان مبتوراً ، فقد توفاه الله في الساعة الثانية من صباح الجمعة في ٣٠ كانون الثاني سنة ١٩٤٨ عن عمر لم يتجاوز الخامسة والخمسين ، فرقد من دمشق التي أحبها بمقبرة الباب الصغير ، بعد أن عمل على أرضها ثلاثين عاماً ، فكأننا نحتفل اليوم بمرور ستّ سنوات تماماً على وفاته ، أو كأننا نؤبنه ونرثيه بأحسن فضائله وخير ما فيه .

* * *

سيدي معالي الرئيس ،

سادتي حضرات الأعضاء ،

هذه صورة لحياة سلفي أرادها التقليد المجمعي ، فوضعني في تجربة دقيقة ، لأني رأيتُ الرجل مرةً واحدةً لم ألقه بعدها أبداً ، فرحت أقرأ على أوراقه ، وكتبه ، وصحفه ، ومقالات أحبائه ، وتناولت آثاره كما أتناول علماً من الأعلام مرّت عليه القرون وانقضت عليه الأجيال ، فكم أتمنى أن أبرأ من الخطأ في تحليل حياته ، والحكم على شخصيته وأخلاقه .

ولعلّ كثيرين منكم يبتسمون لهذه الأحكام وهذا التحليل فأنتم تعرفون أكثر مني ما كان عليه من عيش خاص ونكت سائرة ، ولكنّ هذا كله لا يغير من الخطوط الرئيسية التي رسمتها في تحفظ وبنيتها على نصوص وشواهد من أقواله . والميت قد يبعث في الأفواه أحكاماً غريبة كما يقول ڤاليري ، وقد يحرّك الأحقاد القديمة والأشياء التافهة مما يعلق بحياة أيّ كائن من الناس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في محيط ضيق كالذي عاش فيه الأرناؤط . ولكنَّ اللَّغَط يزول ويبقى السحر الحلال ، وفي التراب كثير من مواد حقيرة ، لكنَّ فيه الذهب والجوهر .

وسواء أوقفتُ عند الجوهر أم وقعت على العرض ، فأنا أدرس المؤلف بلسان الأجيال المقبلة وقد خلف لها كتباً كبيرة وصغيرة ، ومقالات ، وترجمات ، الى جريدة عاشت ثلاثين عاماً ، في بيان متدفق وأسلوب جميل ، فماذا يقولون فيه اذا قسموا أيام العمر على عداد السطور التي كتبت خلال خمسة وخمسين عاماً ؟ ! أظن انهم سيقولون فيه : إنه ما فتر عن الكتابة ولا وهنَ عن القراءة ، ينظر بعينين نافذتين ويقرأ في لغتين غنيتين ، ويستفيد من أدبين واسعين على خلاف أقرانه وزملائه . اللهم إنهم سيحمدون له العصامية ويشكرون له الصبر والدأب ، ويذكرون له براعة الأسلوب وسيجدون فيه خلفاً لخير سلف .

ولعلهم سينحنون أمام روحه كما ننحني اليوم أمام هذه الأرواح التي خلدت أمجادنا الأدبية وصنعت عبقريتنا الثقافية ، وسيتلفتون اليه كما نتلفت اليوم الى الأجداد كلما عضنا الزمان وافتقرنا الى المفاخر ، فليس إكبار الآباء من وثنية الأدب وانما هو من واجب الحضارة يُبنى فيها الطارف على التليد والجديد على القديم ، ومجمعكم وقف نفسه على احترام التراث . فسعى الى جلاء القديم في ثوب جديد اظهاراً للمجد الموروث والعز المكتسب ، وحثاً للهمم الشابة على القدوة الحسنة . ولهذا كان مجمعكم المعقلَ الفذ للدفاع عن لغتنا وتاريخنا ، والحصن المنيع للحفاظ على آثارنا ؛ قضى كثير في سبيل رضاه ، وقضى كثير قبل أن يبلغ منه مناه ، ولهذا كان تفضلكم بانتخابي عضواً بينكم شرفاً عظيماً لي ، لأكون في سدَنة هذا البيت وفي العاملين لحمل أعبائه الكبيرة على أسس من الصبر في العلم ، والجهاد في البحث ، والاخلاص للهدف ، فأشكركم خالص الشكر لهذا التشجيع وأدعو الله أن يبارك في عملكم وأن يأخذ بأيدينا الى النجاح وأن يحقق بأعمالنا أمل الوطن واللغة والأدب ، والسلام عليكم .

الدكتور سامي الدهان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net